اعتمدنا في إعداد هذا الموضوع على عدد من المقالات التي نشرها الشيخ عبدالله علي الحكيمي في صحيفة «السلام» التي كان يصدرها أثناء حياته في مدينة كارديف البريطانية.. وأهمها: «التصوف في عقيدة المسلمين» (عام 1950م)، «العلويون في الميزان» (عام 1950م)، «ما هو التصوف» (عام 1950م)، «التصوف – العلم» (عام 1952م)، إضافة الى مقال مخطوط لم ينشر، بتوقيع الشيخ الحكيمي، آملين تعميم الفائدة من ذلك.

د. خالد سعيد (3-2)

مفهوم التصوف عند الشيخ الحكيمي

كنه التصوف كنز غامض وسر دفين لا يعقله الا العارفون بالله الراسخون بالعلم

● الشيخ عبدالله الحكيمي

3- الوصول إلى المعرفة الحقة والعلم اليقيني:

جاء في الوحي «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»، هذا الحصر يدفع بالمؤمنين إلى الوقوف مليا عنده، فإيمانهم به سبحانه وتعالى يكون أولاً عن تقليد لآبائهم، أو جاءهم من الدليل والبرهان، والاعتماد على الدليل والبرهان غير مأمون، فقد يأتي دليل أقوى وبرهان أظهر ينقضه، ولا بد لمثل هذه الحالة من الوصول إلى اليقين.. واليقين إنما هو بالعلم الذي لولاه لما عرف الله ولا عبد بحق، ولا عرفت كتبه ورسله وشرائعه وأحكامه.. ولُحمة العلم وسُداه هو معرفة الله تعالى، فمعرفة الله راس كل حكمة، ومن عرف الله اطمأن قلبه وارتاح ضميره، وعرف نفسه أنه خليفة الله في أرضه، ومن عرف الله كلت لسانه، ومعرفة الله هي أوجب الواجبات على المكلفين، وإلا فكيف يعبد الإنسان من لا يعرفه؟ وثبت أن طريق الوصول إلى هذه المعرفة هو أن يسعى الإنسان جاهداً في تصفية النفس والقلب والروح وصقلهم بإكسير الإحسان.. ويكون ذلك «بتصفية الباطن والانقطاع إلى الله بالرياضات التي تسمو بالروح إلى الملأ الأعلى، وينكشف للقلب تجلي عظمة توحيد الله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله».

معنى التصوف إذن هو «تزكية النفس وتطهرها من دنس الأغيار وشهود السوى» لقوله تعالى: «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»، هذه التزكية هي التي سمي لأجلها التصوف تصوفاً، وعلى أساسها يدور محور الصوفية العارفين الذين فهموا مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعبده بغار حراء وموسى وعيسى عليهما السلام بجبل الطور وجبل الزيتون.

أماكنه التصوف فهو «كنز غامض وسر دفين لا يعقله إلا العالمون العارفون بالله الراسخون بالعلم».

فإذا حصل المتصوف على مقام المعرفة بالله، وأراد أن يصف ما المقصود بالتصوف من باب الإشارة والتلويح سيقول: «هو قبس يشرق على قلب المؤمن من حضرة الكرم والجود، ويسطع بارقه في قرارة النفس المطمئنة، فيجتاح مراسمها من الأزل إلى الأبد، فيمحو ما علق فيها من ثلجة الأحداث الخيالية الذائبة، ويطلق سراحها من معقلها ومنفاها، ويخرجها من قفص اتهامها بتلبس جريمة الغيرية، ويمنحها الصفح لتذهب حرة طليقة، تسبح بحمد ربها حمد الأبد وتسبيح الدوام، وينعم عليها بوسام: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». وبعد هذا الإنعام السامي الكريم تخرج النفس من عزلتها، وتعود إلى وطنها بعد طول غربتها وغيبتها وهي نائية عن الأوطان، ويفتح لها الباب فتدخل في عباد ربها وتدخل جنته في آن واحد، والمقام كله واحد، مقام خلود ودوام، ويرد إليها كل ما حجز عنها من ملكها وممتلكاتها، أيام تمردها ونشوزها، وتعيش عيشة دائمة مخلدة في رضوان من الله أكبر، مؤدية شهادتها الصادقة إلى شهادة مولاها، «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام»، إسلام النفس إلى ذات مولاها الملك القدوس السلام، وهي ساجدة في حضرة ذي الجلال والجمال سجود الدوام والأبد، وهذه كلمة عن التصوف كاصطلاح عليه، وليست هي التصوف، فهو وراء القول ووراء المادة، بل تجرد عن المحيط والمخيط، وأقرب ما يقال عنه «وأن إلى ربك المنتهى».

فإذا وصل الواصل إلى هذا المقام عبد الله حق عبادته وكان وريث المصطفى صلى الله عليه وسلم، داخلاً في قوله: «العلماء ورثة الأنبياء»، وكانت عودته للناس أشبه بعودة المصطفى عليه الصلاة والسلام من رحلة إسرائه وعروجه، يخبر بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بعد أن ارتقى إلى قاب قوسين أو أدنى «ما كذب الفؤاد ما رأى»، و«ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى».. فينكره الكثير حتى بعض أصحابه كما حدث مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولا يثبت معه في هذا الموقف إلا من سبقت له العناية وكان له من الصِّديق نصيب..

أما هذا الواصل فهو الذي نسميه عندئذ الصوفي أو العارف بالله أو عبد الله..

الحشوية والتصوف:

لا ينكر الشيخ الحكيمي «وجود أناس حسبوا أنفسهم على التصوف وهم ليسوا منه ولا صلة بينهم وبينه بحال من الأحوال، وإنما هم مرتزقون لم يعتنقوا مذهب التصوف بل ما سمعوا به وما عرفوه».. ثم يصفهم بأن «بضاعتهم الرخيصة الكذب والتزويق والتدجيل، ارتكبوا أموراً خارقة للشرع الشريف مخالفة للدين الصحيح وتعاليم الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح من المؤمنين والصوفية المحققين، وغيرهم من أساطين الدين وعلماء المسلمين. أولئك أناس اتخذوا الخرافات والخزعبلات والترهات ولبس الأزياء، وتلفيق الأقوال الجوفاء دينهم ومذهبهم فغلطوا وغلط غيرهم. تلبسوا بهذه الصفات الخبيثة الذميمة، وطعنوا بها الصوفية والتصوف طعنة نجلاء.. دلسوا بها على ضعفاء العقول فاستغلوهم واستثمروهم وسلبوا أموالهم، واسترقوا طباعهم وقلوبهم، وقالوا لهم نحن نبرئ الأكمه والأبرص ونحيي الموتى..دعاؤنا مستجاب وليس بيننا وبين الله حجاب، نعطي من نشاء إناثاً ونرزق من نشاء ذكوراً، وإليكم التباخير وإليكم التعاويذ.. إليكم العزائم وإليكم التمائم.. أعطونا ما بأيديكم نعطكم ما في الغيب، نحن أهل الكرامات، نحن أصحاب المقامات، نحن الذين عندنا علم الكتاب.. هكذا قال ويقول أولئك البعداء المدعون، وهكذا حسبوا أنفسهم على التصوف والصوفية»..

هؤلاء هم الحشوية الذين ينبغي أن يوجه إليهم النقد لا الصوفية البريئون من «هذه الأعمال المخالفة لقداسة التصوف المأخوذ من قداسة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»..

يوافق الشيخ الحكيمي النقاد المتعنتين في أمر واحد وهو مواجهة هؤلاء الذين يصفهم بأنهم ليسوا من الصوفية ولا يعترف بهم الصوفية مطلقاً وأن التصوف يبرأ إلى الله منهم، والصوفية الأطهار يتعوذون بالله من شرهم ويتحصنون بكتاب الله وسنة رسوله من خزيهم الذي لطخوا به وجه الصوفية والتصوف..

ويؤكد أن هذا الموقف هو موقف شيخه الذي «رفع منار الفضيلة وأرشد أتباعه إليها وداس الرذيلة بقدميه وحذر أتباعه منها قائلاً: إن طريقتي العلوية مبرأة من الدنايا ومحدثات الأمور. إنها تبرأ إلى الله من الشعوذة والمشعوذين والخرافات والمخرفين، ومن كل عمل محتقر ليس له دليل من كتاب الله وسنة رسوله ولا من إجماع أو قياس»، ويضيف إلى أن شيخه كان يكره الخرافيين والمتشعوذين لارتكابهم تلك الصفات الذميمة ويتعوذ من الحشوية الذين يدخلون على الدين باسم الدين ما ليس منه فعبدوا الطريق للناقدين فشنوا حملاتهم العنيفة على التصوف والصوفية وطعنوهما من الخلف طعنة نجلاء وما دروا أنهم طعنوا في دينهم ومسوا عقيدتهم بأيدٍ لم تعرف الطهر.

«لقد غلط الناقدون وما عرفوا أن الصوفية هم غير من عرفوا، وخلاف من شاهدوا من أولئك المشعوذين».

بعد أن يصف الشيخ الحشوية ويحدد موقفه منها يجد لزاماً عليه تحديد أخلاقيات التصوف والصوفية ليميزهم عن الآخرين، ويطلب من ثم من كل صوفي أن يمتحن نفسه بها ويطهر قلبه قبل ثيابه لأنه محل النية ومركز العقيدة.

التصوف هو:

1- إيمان بالله وحده وإيمان بكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

2- تمسك بالدين وعمل بكتاب الله العزيز وسنة سيد المرسلين وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وحفظ حدوده والوفاء بعهوده واتباع السلف الصالح على أحسن السبل وأطيب المناهج القويمة والصراط المستقيم.

3- أخلاق عالية وهمم سامية ونية صالحة لخدمة الدين والمسلمين وإخلاص العمل وحسن الطوية وتصفية النفس والعقل والروح وإصلاح القلب.

4- تحلٍ بالفضائل، وتخلٍّ عن الرذائل وخدمة المجتمع بصدق وإخلاص، خدمة يقبلها الدين وكتاب الله وسنة رسوله وتزكيها الحجج والحقائق والشواهد والبراهين.

5- طهر لا دنس فيه، وصفاء لا كدر فيه، وإخلاص لا غش فيه، ووفاء لا خداع فيه، ونزاهة لا دناءة فيها، ودين قويم لاحيلة ولا احتيال فيه، وزهد وورع، وقناعة وعفاف لا طمع ولا جشع فيه، وكلمة حق عند سلطان جائر.

6- عقيدة وقول وعمل، وليس هو تصفيف العمائم أو لبس الجبب وإجراء العبادة بتأدية بعض الوظائف بالجوارح والقلوب خاوية على عروشها، والإيمان لا يجاوز الحناجر، والنفوس غابات سكانها المردة والشياطين.

7- دين قويم، وخلق كريم، وقلب سليم، وعمل صالح يرضي الله والرسول وصالح المؤمنين.

8- قول وتضحية في سبيل الواجب ولا تكفي الوظائف والرواتب وحدها ولابد من الكفاح الصادق في حب الخير والصالح العام وتنقية القلب وتصحيح المبدأ والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الصوفي هو:

1- يكون دائماً واقعياً، يخدم الواقع بالواقع لا بالتهور والهوس والخرافات والخزعبلات، ولا بالتلبيس والتدليس، ولبس الأزياء والتمشدق الأجوف عند الجهال البسطاء، والهذرمة بالقيل والقال، وتأبط الشر للمسلمين، والغل والحقد والحسد.

2- من تصفى عن الكدر، وأصلح سريرته وعلانيته، ونصر أخاه ظالماً أو مظلوماً، يقول الحق ولو كان مرا أو كان على نفسه، يردع الظالمين والمتكبرين لا يخاف في الله لومة لائم، يذود عن مقدسات الدين ويردع الكاذبين والحشوية المتقولين على الدين بما ليس فيه، ويفضحهم أمام العالم ليحذر الناس غوائلهم وغلوهم فلقد أضافوا إلى الدين ما يبرأ الدين منه ولا يستند إلى قول أو دليل صحيح.

3- إذا صار يوماً إلى الظالمين، ويقرهم على ماهم عليه من الفساد وظلم العباد، ويتردد على أبواب الملوك والأمراء والحكام لغير سبب إصلاحهم ونصحهم وإرشادهم وقول الحق الذي لا لائمة فيه بل لقصد التقرب منهم والاستعانة بهم على أغراضه الشخصية والقضاء على آخر رمق من الأمة المعذبة في أي بلد كانت فإنما هو رجل زنديق كذاب محتال لا شرف ولا ضمير له، ولا إنسانية ولا مروءة ولا شعور ولا وجدان له، بل ولا إيمان قوي يحويه ويردعه ويزجره.

4- لا يحل للصوفي أن ينظر لإخوانه المسلمين تهتك أعراضهم وتستباح كرامتهم وتسلب أموالهم ثم يسكت عن ذلك، أو يمد يده ليأخذ له رشوة من تلك الأموال المسلوبة من أيدي المحتاجين لها «وقد قال الرسول: من بدا جفا، ومن تبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا».

«كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء. قال: وما إمارة السفهاء. قال: أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي»..

5- يبذل أمواله ونفسه في سبيل الدين وخدمة المجتمع والذود عن حقوق المسلمين، والوقوف بوجوه الجبابرة المتكبرين.

6- إذا لم يقف رجال الدين من صوفية وغيرهم في وجه كل جبروت وعدوان فمن يفعل ذلك من غيرهم وهم القدوة الحسنة وما الناس إلا تبعا لهم؟ وفي الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، ومن نظر إلى إخوانه المسلمين تستباح دماؤهم وأعراضهم وأموالهم ولم يغير المنكر فليس هو من المسلمين في شيء.

7- لا يصح لمسلم يقول ربي الله أن ينسب الظلم والفسوق والعصيان للقدر ويقول هذا قدَّره الله علينا وعلينا أن لا نعارض القدر، فهذا ذنب لا يغتفر إلا أن يتوب قائله ويعلم أن الله لا يظلم أحداً ولا يرضى من عباده الظلم، وقد حرمه على نفسه وجعله محرماً من العباد، وشر الناس من ظلم الناس للناس. وأن الأعمال التي تجري على أيدي العباد فإنما هي بإرادتهم واختيارهم، لأن الله خلقهم وأودع فيهم قدرة مجازية، وعقولاً تميز بين الخير والشر فتعمل الخير وتجتنب الشر. أما لو نسبت أعمال العبد لله فذلك تعطيل للحكمة وتعطيل للرسالة وللشرائع وللأحكام، فلينتبه الجهال لهذا لأنهم قد يقعون في الخطأ وهم لا يشعرون.

8- حرام. حرام. حرام على المسلم الصوفي وغير الصوفي في أن ينظر لإخوانه يعذبون ويمزقون شر ممزق ثم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وكيف به إذا ينصر الظلم ويعاضد الظالمين.

ثانياً: التصوف والقضايا العامة:

التهمة الثانية الموجهة للصوفية أنهم وهم أكثر الناس اتباعاًقد وقفوا باتباعهم وقوف الأحجار وانزووا إلى الزوايا وتركوا أممهم وشعوبهم تغط تحت كابوس الظلم..

يعيب الشيخ على هؤلاء الناقدين تعصبهم وأحكامهم المسبقة الخاطئة، وأن ذلك هو السبب في عدم توحد الأمة وتكتلها..وأنه كان عليهم أن يفهموا قبل أن يحكموا وسيجدوا الأمر غير ما وصلوا إليه.. فإن للصوفية منطقهم ونظرتهم الواضحة والمحددة بالآتي:

1- إن الإقتداء بالرسول الأعظم يستلزم أولاً تصحيح المبدأ، وهو التمسك بالدين والمحافظة على مكارم الأخلاق وصون الشرف والعفاف، والسير وفق توجيه كتاب الله الكريم.

2- الحقوق على اختلاف أسمائها وطرقها وأسبابها تحل في المرتبة التالية مباشرة..

ولذلك فإن الصوفية تدعو الناس بدعوة الرسل التي دعوا بها أممهم، من أخذ الوثائق والعهود على بعضهم البعض في التزام المبدأ الصحيح.. وحين يترسخ ذلك في قلوب المؤمنين يكون جهادهم الذي يفخرون فيه بفتحهم وتحريرهم النفوس والشعوب فتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

حين يتحدث الشيخ بهذا المنطق فإننا ندرك عمق مغزاه، فحديثه عن فتح وتحرير النفوس والشعوب يجعلنا أمام عدد من القضايا التي لابد أنها حاضرة في فكره.. إنه يناقش الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر اللذين تحدث عنهما الرسول صلى الله عليه وسلم، فالجهاد الأكبر هو تحرير النفوس، والجهاد الأصغر هو تحرير الشعوب..

فتحرير النفوس له أولوية كبرى عند الصوفية ليتحقق به الفتح المبين.. فإذا ما تم ذلك أمكن عندئذ الاهتمام بالغير، ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه.. وكيف يمكن لجاهل أن ينقل علما لغيره.. وهذه قضيةيجهلها المنتقدون عن الصوفية.